الخلق فى ضوء التحليل النفسى

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نايل
مدرس الفلسفة بمدرسة الخلمية الثانوية

سنتناول بالبحث فى مقالنا هذا الطفل منذ ولادته إلى أن يتكون خلقه ويتخذ السمات المميزة له . ووفقا لذلك . سنعالج أولا ما نعالج صدمة الولادة . وتطور الغريزة الجنسية فى رأى فرويد وأتباعه . وعلاقة الطفل بأمه ثم الطرق المختلفة التى تتعدل بها الغريزة . وسنعرض أخيراً لنشأة « الذات العليا » فى رأى فرويد وميلانى كلين .

إن التغير الذى يصحب ولادة الطفل تغير عنيف حاد ؛ فيكون الطفل غالبا عرضة للدفع القوى والجذب الشديد . وينتقل من هدوئه العميق الساكن إلى عالم البرد والهواء المتحرك والضوء والصوت الحاد ؛ ويقوم بحركات تعينه على سحب الهواء البارد إلى رئتيه ثم يدفع به ثانية مع صرخته الأولى . وهذه الصدمة — أى صدمة الولادة trauma of birth — هى أول صدمة يعانيها الطفل فى حياته . وأول من عنى بإبراز هذه الفكرة هو أوتورانك Otto Rank (١) فى بحث له تناول هذا الموضوع . والولادة — على هذا الوصف — هى النموذج الأول للاستجابات القلقية اللاحقة . لأنها تتضمن عادة تهديدات للكائن الحى كخطر الاختناق وخطر النزف بالنسبة لنسيج الخلايا العصبية وضروب الخطر الناجمة من الصعوبات الخاصة بعملية الولادة ومدتها .

والولادة انفصال عن الأم ؛ وهى على هذا النحو إنما تكون النموذج الأول الأصيل للتهديدات المناظرة المماثلة التى ستتكرر فى حياة المرء . ويمكن النظر إلى عملية النمو على أنها سلسلة من الانفصالات : فهناك انفصال متضمن فى

(١) Otto Rank: "The Trauma of Birth"

عملية الفطام ؛ وهناك انفصال كذلك فى ترك أحضان الأم والبدء فى تعلم المشى ، وهناك انفصال كذلك عندما يترك الطفل المنزل للالتحاق بالمدرسة . ويتطلب الميلاد ضروبا وأشكالا جديدة من التوافق نظرا لوجود حالات ومواقف جديدة . وشبيه بذلك ما يحدث أثناء الحياة إذا ما صادف المرء مواقف جديدة تكون فيها ضروب الاستجابة السابقة غير ملائمة ولاموافقة فيلجأ المرء إلى محاولة استجابات جديدة تكون أكثر موافقة وتمكينا له فى الرد على المواقف الجديدة . ويلجأ الرضيع إلى أفعاله المنعكسة فى بدء حياته . وإذا ما تقدم به العمر فإن توافقه يقوم على أساس خبراته التى اكتسبها عن طريق التعلم . وحيثما تبدو الاستجابة التى تعلمها المرء غير كافية بالنسبة للموقف يرتد المرء على أعقابه إلى ضروب بدائية من السلوك . فالرضيع مخلوق عاجز يعتمد كل الاعتماد على الأفعال المنعكسة المزود بها لكى يتوافق مع المواقف والحالات التى تعرض له . وهذا الموقف — أى موقف العجز — هو ما تتسم به حالات القلق التى يصادفها المرء فى حياته . وعلى هذا النحو ، تكون الولادة بما يصاحبها من حالات العجز نموذجا أوليا لضروب القلق التى تحدث فيما بعد . وبالقدر الذى يشعر به المرء بقدرته بالنسبة لحالة من الحالات يقل قلقه . ويميل فرويد إلى القول بأن خبرة مثل صدمة الميلاد[1] « لتتضمن سلسلة من المشاعر الأليمة ومن انطلاقات التنبيه ومن الإحساسات الجسمية ، مما يجعلها النموذج الأول لجميع المواقف التى تكون فيها الحياة فى خطر . وإنها لتتولد من جديد فى صورة الفزع أو « الحصر » . »

وبعد هذه الإشارة الوجيزة إلى عملية الولادة وما تتضمنه من الدلالات النفسية ، علينا أن نشير بإيجاز إلى المراحل التى تمر فيها الغريزة الجنسية فى نضجها واكتمالها وفقا لرأى فرويد وأتباعه. تمر الغريزة الجنسية فى نموها بثلاثة أطوار: طور الطفولة ، وطور الكمون الجنسى ، وطور المراهقة . ولقد وجه فرويد وأتباعه عناية خاصة إلى الطور الأول الذى ينتهى تقريبا فى سن الخامسة أو السادسة تقريبا . ولقد قسمه إلى ثلاث مراحل : المرحلة الفمية ، والمرحلة الاستية ، وهما غير تناسليتين . والمرحلة التناسلية الأولى المعروفة بالقضيبية . وعلينا أن نتذكر أن كلمة « التناسلى » نسبة إلى أعضاء التناسل وليست نسبة للوظيفة .

وسنتناول وصف كل مرحلة بإيجاز . ولنبدأ بالمرحلة الفمية : فى الشهور

[1] Freud: Inhibitions, Symptoms and Anxiety" pp. 96 — 112 — 158-156.

الأولى لحياة الطفل يكتسب الفم رويدا رويدا أهمية بوصفه المنطقة الجسمية التى يشتق منها الطفل اللذة . ونجد فمه أرهف مركز لحساسيته وإليه يرجع أعمق وجدانه وأ لح نزعاته . وإذا أردنا أن نحصل على ما يكشف لنا عن حدة الوجدان والنزعات التى تتركز حول الفم وكيف أنها تكون فى هذه المرحلة المحور الذى تدور حوله حياة الطفل النفسية فما علينا إلا أن نتأمل كيف يتناول الطفل الثدى بنهم شديد وكيف يتنحى عن الأشياء التى ليست الثدى . فليس الفم وسيلة للحصول على الطعام فحسب بل هو أداته للحصول على معرفته الأولى بالعالم الخارجى . ولقد قسم بعض علماء التحليل النفسى هذه المرحلة الى شقين :

(ا) المرحلة الفمية المبكرة : وأهم ما يقوم به الطفل فى هذه المرحلة الرضاعة سواء من ثدى الأم أو ما يقوم مقامه . وفى البدء تكون عملية مص الثدى وثيقة الصلة بغريزة حفظ الذات ولكنها سرعان ما تنفصل عنها وتصبح فى ذاتها مصدراً للذة . وقبل ظهور بشائر الأسنان تكون هذه العملية عملية بنائية تلتقى فيها اللذة والتغذية . والطفل فى هذه المرحلة عاجز عن أن يدرك أنه ذات فهو لا يزال فى مرحلة اللاتغاير حيث لا يوجد تمييز واضح بين الأنا واللاأنا أو بين ما هو « ذات » وما هو « غير ذات » .

(ب) المرحلة الفمية المتأخرة : وفى هذه المرحلة تظهر بشائر الأسنان وتكون « الذات » قد بدأت فى التمايز فيستطيع الطفل على نحو ما أن يشعر بانفصاله عن العالم الخارجى . وتأخذ نزعات الفم فى التحول من المص إلى العض ولذا تصبح معاملته للأشياء أكثر نشاطاً وعدواناً . فيعض ويمضغ كل شىء يصل إلى فمه كأصبعه أو أصبع أمه والثدى نفسه إذا لم يكن قد تم فطامه بعد . وفى هذه المرحلة يختبر الطفل إلى جانب الحب انفعال الكراهية فيبدأ عهده بالتناقض الوجدانى . ويتميز نشاط هذه المرحلة بالهدم والتدمير ولذا تسمى بالمرحلة الفمية السادية . وتستغرق المرحلة الفمية على وجه التقريب السنة الأولى من حياة الطفل .

ثانيا المرحلة الإستية : ابتداء من نهاية السنة الأولى حتى منتصف السنة الثالثة تقريبا يفقد الفم كثيراً من أهميته كمنطقة شبقية وتحتل أعضاء الإخراج مركز الصدارة كمنطقة جسمية تشتق منها اللذة الشبقيه الذاتية . ونرى من جديد كيف يكون النشاط الغريزى مهما فى ارتباطه بالوظيفة الجسمية . ويكاد يكون

عمل الوظائف الإخراجية شبيها بالأفعال المنعكسة . وعندما يتم التحكم فى المعدة يصبح الغشاء المخاطى لأعضاء الإخراج أكثر حساسية ويحصل الطفل على اللذة التى كانت تشتق فى البدء من النشاط الفمى بطرق متنوعة عن طريق الغشاء المخاطى لأعضاء الإخراج . وفى هذا الوقت تصبح الظروف أكثر تعقدا مما كانت عليه من قبل نظرا لأن الطفل أخذ يكون علاقات وجدانية مع الأشخاص الذين حوله . وعلى خلاف النشاط الغريزى للمرحلة الفمية نجد ضروب النشاط الشبق الذاتى التى تتمركز حول فتحة الشرج غالبا ما تكون فى خفاء عن العالم الخارجى . وقد تنحصر فى إمساك الطفل للبراز حتى يضطره الأمر إلى التبرز مما يؤدى إلى حدوث تهيج أكثر لذة للغشاء المخاطى من الأحوال العادية التى يتم فيها التبرز أو عن طريق التهييج الإيقاعى عن طريق الإصبع . ويمكن أن تقسم هذه المرحلة إلى شقين : (ا) المرحلة الاستية المبكرة : التى لا يكون الطفل قد وصل فيها إلى ضبط وظيفتى التبول والتبرز فينصرف نشاطه إلى الطرد والتفريغ . وهذا النشاط نشاط هدام .

(ب) المرحلة الاستية المتأخرة : التى يتم فيها ضبط عمليتى التبرز والتفريغ . والنشاط فى هذه المرحلة نشاط تكوينى بنائى .

ويظهر فى المرحلة الاستية ، عدا النشاط الشبق الذاتى ، دوافع غريزية لم تعد تتمركز حول جسم الطفل وحده وإنما تتخذ الأشخاص الذين يحيطون به كموضوعات لها خاصة الأم . وفى ذلك الوقت يأخذ الطفل فى تكوين علاقة وجدانية وثيقة بأمه . ووجود الأم وعنايتها بالطفل جزء مكمل لنموه النفسى . وإذا كان الطفل فى بداية هذه العلاقة يشتق لذة من وجوده بجوار أمه ومن لمسه لجسدها ومن تدليلها له . فإن سلوكه يتفصح عن دوافع عدوانية فى هذه المرحلة الثانية عندما لا تشبع رغباته فى الحال . وتتفصح هذه الدوافع العدوانية فى صورة الغضب والكراهية كما أنها تتفصح كذلك فى علاقة الطفل بغيره من الأطفال خاصة الضعاف فيأخذ الطفل فى الاعتداء عليهم . ويبدو أن نضج الطفل الانفعالى فى هذه المرحلة لم يصل بعد إلى درجة تمكنه من تقدير الأذى والألم الذى يلحقه بغيره من الأطفال . ومهما يكن الأمر . فإن نزعة الطفل لأن يكون موضوعا للأذى يعادلها فى القوة نزعته إلى إيذاء الغير على الرغم من صعوبة التحقق من ذلك عن طريق الملاحظة .

ثالثا المرحلة التناسلية : تمتد هذه المرحلة من السنة الثالثة إلى السنة الخامسة أو السادسة . وتتركز فيها الميول الجنسية حول منطقة الأعضاء التناسلية . ويقسمها بعض المؤلفين إلى شقين : (ا) المرحلة القضيبية وفيها يتركز اهتمام الطفل حول أعضائه التناسلية مستمداً منها اللذة ويستمر نمو الأنا ويطرد ويأخذ الموقف الأوديبى دوراً هاماً .

(ب) المرحلة التناسلية : فى هذه المرحلة يكون « الأنا » أو « الذات » قد تمكن من السيطرة إلى حد كبير على التناقض الوجدانى الذى يكوّن لب عقدة أوديب واستطاع أن يجد موضوعا لحبه فى العالم الخارجى .

وتتميز هذه المرحلة على وجه العموم بالاهتمام الكبير بأعضاء التناسل . وأول الدلائل على تلك النزعة رغبة الطفل فى أن يعرض جسمه عاريا واهتمامه بأجسام الأطفال الآخرين . ويتخذ هذا الاهتمام من الوجهة العقلية صورة الأسئلة التى يوجهها الطفل عن الفروق بين الجنسين . ويتمثل النشاط الشبقى فى هذه المرحلة فى عملية جلد عميرة . والنزعات الغريزية التى يوجهها الطفل نحو الأشخاص كالأب أو الأم أو الأخوة لها قرابة بالرغبات التى يعانيها الشخص البالغ فى حبه . فيوجد الميل إلى امتلاك أحد الوالدين من الجنس المغاير لجنس الطفل ، وتوجد الغيرة من أحد الوالدين الذى من نفس جنسه . ومع وجود الشبه بين الدوافع الغريزية للطفل والحياة الجنسية للبالغ فإن هناك فارقا كبيراً يتلخص فى أن كلا من الصبى والبنت يهتم بعضو الذكر وينظر إليه على أنه وحده الشكل الصحيح السليم .

ويظهر فى هذه المرحلة — أى المرحلة التناسلية — ما يسميه فرويد بمركب أوديب وسنعالجها بشىء من التفصيل من حيث اتجاه كل من الصبى والبنت . يبدأ سلوك الصبى والبنت فى الاختلاف حوالى الثالثة . فيأخذ الصبى فى حماية الأم ويكشف عن قوته أمامها ويقلد أباه فى سلوكه بل ويتحدث عن الوقت الذى يصبح فيه قوياً مثل أبيه . وبعبارة أخرى ، يود الطفل من أمه أن تعامله كحبيب . وكثيراً ما نسمع من الأطفال فى سن الرابعة أنهم يودون الزواج من أمهاتهم إذا ما كبروا . ويعترى علاقة الطفل بأبيه بعض التغير : فيمتزج الإعجاب بالغيرة من الأب نظراً لعلاقته الوثيقة بالأم بل يتخذ الطفل من أبيه ، فى بعض الأحيان ، موقف المنافسة الصريحة . ويختلف الأمر بالنسبة للبنت .

فتأخذ الطفلة فى تغيير موضوع حبها الأصلى — الأم — ويصبح الأب هو الموضوع فى حين أن موضوع الحب بالنسبة للصبى يبقى كما هو دون تغيير . ومن المألوف أن الآباء يفضلون بناتهم فى حين أن الأمهات يفضلن الذكور . وتظهر الغيرة من الأم نظراً للارتباط الوثيق بالأب الذى أصبح موضوعاً للحب عند البنت . ونظراً لأن البنت ما زالت فى حاجة إلى أمها ، فإنها لا تفصح عن غيرتها بنفس الدرجة التى يفصح بها الولد . وهناك عامل آخر يجعل المسألة أكثر صعوبة بالنسبة للبنت . فلقد سبق أن بينا فى عرضنا لنمو الغريزة — فى المرحلة القضيبية — أن عضو الذكر هو المفضل وحده . فيتولى البنت شىء من العجب وتتساءل لماذا لم تخلق « ذكراً » وتنتهى إلى القول بأنها لابد أن يكون بها عيب . ويضاف الغضب إلى الغيرة ما دامت البنت تحمل الأم مسئولية كونها بنتا . وعلى وجه العموم ، تتميز هذه المرحلة بالانفعالات القوية العنيفة نظراً للتناقض الوجدانى Ambivalence عند الصبى : فهناك حبه لأبيه وغيرته منه . وكذلك البنت تحب أمها وتغار منها لامتلاكها لأبيها . يضاف إلى ذلك أن هذه الدوافع العنيفة لا تجد أى إشباع حقيقى لها . وفى هذا الوقت يبلغ التشوق إلى استطلاع المسائل الجنسية أقصاه . ويُرضى بعض الأطفال عادة حبهم إلى الاستطلاع عن طريق رؤية الأعضاء التناسلية للأطفال الآخرين أو بالعبث الجنسى ظنا منهم أنهم بذلك يقلدون والديهم . ويبتهج الأطفال فى هذه المرحلة جنسيا خاصة عند النوم ويجدون فى عملية جلد عميرة راحة وتنفيسا من القلق الذى يعانونه . ويصاحب عملية جلد عميرة ضروب من الخيالات المتصلة بالمحارم والتى تكشف عن فكرة الطفل عن الحياة الجنسية كما أنها قد تتضمن عناصر سادية كمناظر الضرب التى تكون بمثابة التعبير المقنع عن العدوان الذى يحصل أثناء عملية الجماع بين أمه وأبيه . وتصبح عملية جلد عميرة فى ذلك الوقت المركز الذى تدور حوله الحياة الجنسية الطفلية .

ومصير علاقة الحب الأولى الموجهة إلى الوالدين الإخفاق لأسباب فسيولوجية إن لم يكن لأسباب أخرى . ويتوقف مصير الحياة الانفعالية للبالغ على الطريقة التى يتم بها حل الموقف الأوديبى . ولكن كيف يتأتى للطفل أن يدرك عدم قدرته على إشباع رغباته ؟ فلاحظ أولا صغر حجمه بالنسبة للوالد الذى من نفس جنسه . ومع أن الطفل ، إبان ذلك الوقت ، يدعى أنه قد نما وكبر

إلا أنه مع ذلك يتحقق من ضعفه بالنسبة لوالديه . وهناك عامل آخر أكثر أهمية ألا وهو الخوف الذى يعانيه الطفل من أحد الوالدين ، الذى من نفس جنسه . أى الأم فى حالة البنت والأب فى حالة الصبى ؛ نتيجة لمشاعر الكراهية التى يضمرها له . وما زال الطفل عدوانيا . فإذا ما كره الطفل شخصا ما — على الرغم من أن هذا الشخص قد يكون موضوعا لحبه وإعجابه فى أوقات أخرى — يود ألا يراه . ومعنى عدم رؤيته موته . فالطفل ما زال يتزع إلى الاعتقاد بقوة أبيه الخارقة وعلمه المحيط بكل صغيرة وكبيرة مما يؤدى إلى أن يلقى فى روعه أن أباه يعلم هذه المشاعر العدوانية التى يكنها له . كما أن أباه يعلم كذلك رغبته فى امتلاك الأم ، الأمر الذى يترتب عليه أن يتوقع الطفل أن أباه يضمر له نفس المشاعر العدوانية التى يضمرها هو له . ولذا يخاف الطفل أن يوقع به أبوه أشد العقاب . والعقاب الفظيع الذى يخشاه الطفل هو الإخصاء . ومن المحتمل أن يكون الطفل قد هدد بالعقاب أثناء انغماسه فى عملية جلد عميرة مما يجعله يعتقد أن الإخصاء كعقاب له أمر طبيعى لا شذوذ فيه . ومن ثم يصبح الطفل فى موقف حرج بين رغباته الغريزية التى تلح فى سبيل الإشباع والتى تهدف إلى الاستحواذ على الأم ؛ والخوف من عقاب أبيه الذى قد يفضى إلى سلبه عضو التذكير نتيجة لرغبته فى امتلاك الأم . وينتهى الأمر بتغلب خوفه من حرمانه من ذكورته على رغبته فى امتلاك الأم . وبدلا من امتلاك الأم يتقمص الصبى شخصية أبيه ؛ فيود أن يكون مثله حتى إذا كبر كان فى مقدوره أن يتزوج امرأة كأمه . ولعل مما يساعد الطفل على ذلك إعجابه بقوة أبيه . ولكن الدوافع الغريزية لا تختفى بسهولة . فما الذى يحدث لهذه الدوافع الغريزية بعد تقمص الطفل لشخصية أبيه ؟ أول ما يحدث أن الطفل لا يود أن يعرف بطريقة شعورية أى شىء يدور حول هذا الصراع ومن ثم يكبت هذا الصراع مع بعض هذه الدوافع الغريزية . وتعمل الطاقة الكامنة لهذه الدوافع المكبوتة فى تكوين الصورة المثالية للأب الذى تقمص الطفل شخصيته . ويترتب على هذه العملية أن تفقد هذه الدوافع طابعها الجنسى . وتبقى بعض الدوافع الأخرى ولكن يعتريها الكف Inhibition فى غرضها الذى تستهدفه ومن ثم تتضمن الشعور بالحنان الذى يشعر به الطفل فيما بعد بالنسبة لوالديه . أما عن المشاعر العدوانية ، فإنها وقد سلبت موضوعها ، تتجه إلى الطفل نفسه . وتلعب دوراً هاما فى تكوين

الضمير عند الطفل . وهذا هو الوجه السليم الذى ينتهى إليه الموقف الأوديبى . ولكن قد يحدث أن يتخذ هذا الصراع شكلا مرضيا إما لقسوة الأب أو للرغبة الشديدة فى امتلاك الأم نتيجة لغيبة الوالد الطويلة ، كما يحدث مثلا أثناء الحروب ، فمن المحتمل فى هذه الحالة أن تتحول الرغبة من الأم إلى الأب أى قد يتخلى الطفل فجأة عن الأم نظراً لقسوة الأب الشديدة ويبحث عن إرضاء الحب ودوافعه الغريزية عند الأب . ويؤدى هذا الأمر إلى اتخاذ الصبى اتجاها سلبيا مختلفاً بالنسبة لأبيه مما يؤدى إلى كبت هذه الدوافع بدورها لأن مجرد الاعتراف بها إنما هو اعتراف من الصبى بأنه أصبح كالبنت وأنه أصبح « مخصيًّا » . وقد يترتب على ذلك وجود اتجاه جنسى مثلى كامن أو سافر فى حياة الطفل المقبلة أو اتخاذ سلوك غير اجتماعى .

ويتخذ الصراع الأوديبى عند البنت شكلا أقل حدة من الصبى . ولو أن التغير فى موضوع الحب يتضمن صعوبة كبيرة لا يمكن أن يُتغلب عليها تماما فى العادة . وبما أن الفتاة ليس لها « عضو تذكير » فإنها لا تخاف فقده . ونحن نعرف أن شعورها بنقصها يزيدمن شعور البغضاء الذى تشعر به نحو أمها . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أن حبها لأمها واعتمادها عليها كبير . وما يدفع الفتاة إلى نبذ رغباتها فى الأب والتخلى عنها هو الخوف من ضياع حب الأم ؛ هذا الحب الذى بدونه تصبح عاجزة . وينتهى هذا الصراع بتقمص البنت لشخصية أمها حتى تجد فى مستقبل أيامها حبيبا لها كأبيها . وتتعدل الدوافع الغريزية فى نفس الاتجاه وتحدث إمكانيات مماثلة تبعا لشدة الخوف ومشاعر الذنب التى تعانيها البنت . وقد يحدث بالنسبة للبنت أن ينتهى الصراع بتقمص Identification الفتاة لشخصية أبيها بدلا من أمها الأمر الذى يفضى فيما بعد إلى اتجاهات جنسية مثلية أو قد تكبت البنت الصراع بأكمله مما يؤدى إلى التثبيت Fixation بالنسبة للمرحلة الأوديبية . ويحدث هذا عادة عندما تميل الفتاة فى حياتها المقبلة إلى حب الرجال المتزوجين !

وينزع الأطفال الذين تمكنوا من التغلب على المرحلة الأوديبية إلى كبت كل ما من شأنه أن يذكرهم بالصراع الذى حدث أثناء هذه المرحلة . وهذا يعنى أن أى تذكر لرغباتهم الغريزية فى هذه المرحلة أو ما قبلها يطرد من مجال

الشعور . ويحدث نفس الأمر [١] بالنسبة للخبرات غير المؤدية التى عاناها الطفل إبان تلك المرحلة والأماكن والأشخاص .

ولعل هذا هو السبب فى أن كثيراً من البالغين ينسون معظم الذكريات التى تنتمى إلى ما قبل الخامسة أو السادسة . ويحدث فى بعض الأحيان أن يمتد هذا النسيان إلى السابعة أو الثامنة . وهذه الأمنيزيا [٢] الطفلية (فقدان الذاكرة بالنسبة لحوادث الطفولة) Infantile amnesia هى السبب فى عدم إمكاننا الحصول على معرفة ذكريات الطفولة وحوادثها قبل أن يتمكن فرويد من ذلك عن طريق اصطناعه لمنهج التحليل النفسى الذى يقوم على التداعى الحر كدعامة له .

وبعد المرحلة التناسلية يدخل الطفل فى فترة الكمون التى تمتد حتى البلوغ وهى مرحلة إعداد لفترة المراهقة . وفى هذه الفترة لا يكون للطفل نشاط جنسى جديد فينصرف إلى حل عقدة أوديب على النحو الذى شرحناه من قبل . وفى أول العهد بالمراهقة تظهر هذه المراحل مرة أخرى لفترة قصيرة ولكنها لا تلبث أن تختفى لكى تنصرف الحياة الجنسية عند المراهق إلى النضج والاكتمال .

وبعد أن فرغنا من ذكر مراحل النمو بما تتضمنه من أوجه النشاط النفسى علينا أن نعرض للعلاقة الوجدانية التى تربط الطفل بأمه لما لها من أثر كبير فى تكوين خلق الطفل وطبعه بطابع يظهره أثره بوضوح فى مقتبل حياته . وإذا أردنا أن نرسم صورة أكثر وضوحا لمصير الدوافع الغريزية المختلفة علينا أن نتعمق فى بحث نمو أول وأوثق علاقة فى حياة الطفل . ولا تترك هذه العلاقة الأولى أثرها وطابعها على شخصية الطفل إذا ما تقدم به العمر فحسب . ولكن من المعروف كذلك أن الجانحين delinquents ما هم إلا أشخاص قد أصابهم الفشل والحرمان فى علاقاتهم الإنسانية .

تنمو علاقة الطفل بأمه منذ مطلع الحياة على نحو بطىء . ويعتقد أغلبية المحللين النفسيين أن علاقة الطفل بأمه أثناء الأسابيع الأولى بل والشهور الأولى كذلك هى علاقة بسيطة نوعاً ما . ولقد انتهوا إلى هذا الرأى نتيجة لخبرتهم التى

1. Kate Friedlander. The psycho-analytical approach to juvenile delinquency" p. 43

2. Freud, S. "Three contributions to the theory of Sexuality"

اكتسبوها من تحليل البالغين والأطفال وملاحظاتهم المباشرة للأطفال منذ ولادتهم . فالأم هى الوسيلة التى تشبع حاجات الطفل الجسمية . وأى فرد يحقق هذه الوظيفه للطفل يستثير عنده نفس الاستجابة : ولقد قال نفر بسيط من علماء التحليل النفسى خاصة مسز ميلانى كلين بنظرية فى النمو النفسى لدى الطفل تفيد وجود علاقة نفسية معقدة بين الطفل وأمه تظهر مباشرة عقب الولادة . ولكن ليس فى الإمكان حتى الآن ، كما يقول كيت فريدلندر الحصول على الحقائق العلمية التى تؤيد هذه النظرية بل ، على العكس ، تميل بنا الحقائق التى فى متناولنا إلى تدعيم الرأى القائل بالنمو البطىء[1] للحياة النفسية على أساس الحاجات الجسمية .

لا يستطيع الطفل فى مبدأ حياته أن يميز بين ذاته والعالم الخارجى . ويكاد الرضيع حتى هذه اللحظة ألا يشعر بما يدور حواليه . ويبدأ الرضيع فقط فى الشعور بوجوده إذا ما كان هناك ما يقلق راحته . وهو لا يستطيع أن يميز ما إذا كان مصدر عدم الراحة شعوره بالجوع أم أنه يرجع إلى عامل خارجى . ويستجيب لكل ما يقلق راحته سواء كان مصدره باطنيا أم خارجيا بشقاء بالغ يعلنه إلى العالم الخارجى عن طريق بكائه . فإذا ما أشبعت حاجاته نام من جديد وبعبارة أخرى سحب انتباهه من العالم الخارجى . وتصبح الأم مرتبطة عند الطفل بإزالة الألم وانتفاء حالة عدم الإشباع على نحو بطىء إبان الأسابيع والأشهر الأولى خاصة عند الأطفال الذين يرضعون من ثدى أمهاتهم . وعلى ذلك تقوم أول علاقة تربط الطفل بأمه على أساس إشباع الحاجات المادية وحدها . وعدم قدرة الطفل على إزالة ما يقلق راحته هى السبب فى اعتماد الطفل المادى على أمه أو بديل الأم . وفى أثناء النصف الثانى من العام الأول نلحظ تغيراً فى علاقة الطفل بأمه . ولا يفيد هذا التغير أن الطفل لم يعد راغبا فى إشباع حاجاته بل إن هذا الأمر يصبح مهما كما كان ، ولكن كل ما هنالك أن الطفل أصبح قادراً على التمييز بين أمه والمحيطين به . ويود أن تكون أمه باستمرار إلى جانبه حتى ولو لم يعان ألما فيحب أن يلمسها بيديه ويداعب ثديها ويبتسم لها . ومن المحتمل أن تكون هذه الوحدة النفسية التى تبدأ فى التكوين إبان ذلك الوقت والتى تصل إلى قمتها أثناء العام الثانى ، شديدة عند الأطفال الرضع الذين

1. Kate Friedlander: "The psycho-analytical approach to juvenile delinquency", p.23

تربطهم صلة وثيقة بأجسام أمهاتهم . ومع ذلك . فربما كان من المبالغة الزعم أن العلاقة التى تربط الطفل بأمه تختلف فى الكيف فى حالة الأطفال الذين يرضعون من الثدى عنها فى حالة الأطفال الذين يتناولون طعامهم من « المصاصة » . والذى يهمنا أكثر من هذه العلاقة المباشرة بثدى الأم إنما هو اتجاه ووقف الأم بالنسبة للطفل من حيث هو اتجاه مطبوع بصفة الود والحنان أم لا .

ومن المحتمل صحة القول الذى يذهب إلى أن مشاعر الطفل فيما بين السنة الأولى والثانية بالنسبة لأمه مماثلة لما نسميه بالحب ، وإن هذه المشاعر لتبلغ فى عمقها واستمرارها مشاعر البالغ . ويساهم كثير من العوامل فى تقوية هذه الصلة . فهناك اعتماد الطفل المطلق على أمه لأنها الشخص الذى يمنع الموت عنه . وهناك أيضا دوافع الطفل الغريزية الآخذة فى النمو والتى اتخذت العالم الخارجى لأول مرة هدفا لها . وهناك أيضا الظاهرة التى تفيد أن هذه الدوافع الغريزية ، التى يمكن وصفها أضبط وصف وأكمله فى هذا الوقت على أنها رغبة الطفل فى أن يستبقى جسم أمه أقرب ما يكون إليه . لا تطيق الانتظار حتى تشبع لأنها تولد توتراً نفسيا عنيفا فى الطفل يدفعه إلى التماس الراحة فى الحال . وفى المرحلة المبكرة لهذه العلاقة ، أى فى النصف الأول من العام الثانى . لا تزال الوحدة التى تربط الطفل بالأم كاملة . فرغبة الطفل الملحة فى أن يتناول غذاءه ويستبقى أمه بجواره مرعية ، والأم بدورها مغتبطة برؤية طفلها يقبل جيداً على غذائه ولشعوره بالسعادة بجوارها .

ويعادل شعور الطفل الشديد بالحب لأمه فى الأهمية شعوره بالخوف من أن تتركه أمه وحده . ولقد تعلم الطفل بالفعل أن يربط الشعور غير الملائم الناتج عن عدم إشباع حاجاته الغريزية بغياب أمه . ومن ناحية أخرى . نلاحظ أن الطفل لم يدرك بعد أن غياب أمه ما هو إلا غياب عارض مؤقت . فأى غياب للأم يشعر الطفل بالشقاء الذى لا يمكن مقارنته إلا بالغم الذى يعانيه البالغ من فقد شخص عزيز عليه . فالطفل فى هذه المرحلة لا يعرف للماضى والمستقبل وجوداً . وكل ما يعنيه هو الحاضر الذى يعيش فيه ويشعره بالسعادة أو الشقاء . ولقد جمعت كل من آنا فرويد Anna Freud ود . برلنجهام D. Burlingham مادة قيمة جداً فيما يتعلق بانفصال الطفل عن أمه فى هذه المرحلة التى تتميز بهذه العلاقة الوثيقة السعيدة بين

الطفل وأمه . وتفسر الاستدلالات والنتائج التى انتهيا إليها كثيرا من الأعراض Symptoms التى ظهرت أثناء هجرة الأطفال إبان الحرب العالمية الثانية . ولسوء الحظ ، فإن علاقة الطفل بأمه ليست بالعلاقة المرضية الملائمة على طول الخط . وتسير الأمور كما يشتهى الطفل لوقت لمعين . فمن المعروف أن حب الأم يلعب دوراً هاما فى النمو النفسى للطفل . كما أن الخوف من تلك الأم كذلك يلعب نفس الدور إن لم يفقه فى الأهمية الأمر الذى يترتب عليه أن يتنازل الطفل عن بعض دوافعه الغريزية حرصا على هذا الحب وخوفا من ترك الأم له وحده .

ولكن سرعان ما تتأزم الأمور أمام الطفل : فهناك الأطفال الكبار الذين يشاركونه فى حب الأم . وهناك الأب ذلك الكائن الجبار الذى يستحوذ على الأم . بل هناك كذلك احتمال مجىء طفل صغير سيحظى بمعظم عناية الأم إن لم يكن كلها . كل هذه الأمور يدركها الطفل بوضوح أكثر فى عامه الثالث وبقدر ما لها من أهمية . ونعلم أن النزعات العدوانية قد أصبحت قوية فى هذا الوقت نوعاً ما مما يجعل الطفل يستجيب لكل موقف يشعره أو يتهدده بالخيبة بالغيظ أو الكراهية . ومع أن هذه المشاعر قوية إلا أنها سرعان ما تنقشع ويسود الحب الموقف من جديد . ولقد ظن البعض أن فى الإمكان تنشئة الطفل وتربيته دون أن يكون عرضة لمشاعر الكراهية والخيبة ، ولكن قد ثبت بطلان هذا الزعم . ولا يمكن أن تسم السعادة علاقة الطفل بأمه دواماً لأن مطالبه كثيرة إلى حد كبير . ولأن إلحاح غرائزه يبلغ حدا فائقاً من العنف : فلا يرضى الطفل بأقل من ملازمة أمه طول الوقت دون أن يشاركه فيها أى مخلوق . ولا شىء يضمن له سعادته إلا تحقيق وإشباع حاجاته ورغباته فى الحال . فكأنما الأمر يفيد الاستمرار فى إرضاع الطفل وتركه قذراً والسماح له بأن يوقع الأذى بغيره من الأطفال وصغار الحيوان .

ومع أن هذه العلاقة بالأم كفيلة بأن تشعر الطفل بالشقاء والخيبة فى بعض الأحيان مهما أظهرت الأم من حب وحنان . فإن مسلكها وطريقتها التى تتخذها فى ترويض طفلها لها أثر كبير فى تكوين خلق الطفل . والشقاء الذى يشعر به الطفل نتيجة لعدم إشباع حاجاته قد يكون من الممكن احتماله أو عدم احتماله . وإذا لم يكن فى الإمكان أن ينشأ الطفل وينمو فى سعادة مطلقة فليس

علينا إذن إلا أن نحول ما يشعر به من عدم التوقع نتيجة لعدم إرضاء حاجاته الغريزية فى التو واللحظة إلى أداة تربوية .

وبعد نهاية العام الثالث . يلحق علاقة الطفل بأمه بعض التغير . فيدخل الأب والإخوة فى مجال الطفل على نحو أكثر وضوحاً وتميزاً كما أن رغبات الطفل ودوافعه الغريزية لا تتركز بنفس الدرجة السابقة حول الأم .

وهنا نقطة مهمة لا بد من تبيانها إذا ما أردنا أن نفهم الطريقة التى يتكون بها خلق الطفل على نحو واضح ألا وهى ذكر الطرق التى تتعدل بها دوافع الطفل الغريزية وتجعل سلوكه يتسم بطابع اجتماعى مقبول . بما أن الطفل يولد فى مجتمع متعددين ويحوطه منذ ولادته إلى مماته أشخاص لهم مقاييس معينة من السلوك — أيا كانت طبيعة هذه المقاييس فى أى مجتمع كان — فإن تربية الطفل على أن يتوافق فى سلوكه مع مبدأ الواقع تبدأ عملياً منذ الولادة . وبالقدر الذى وصل إليه تقدم معرفتنا وتطورها حتى الآن . يبدو لنا أن نضوج الدوافع الغريزية يكاد أن يكون عاماً كما أنه يكون بمعزل عن العوامل المحيطة فى حين أن تعديل الغرائز والنمو الانفعالى الملاحق لها إنما يتأثران إلى مدى بعيد بالوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه الطفل .

ومن المعروف أن الطفل منذ بدء حياته ينتظر طعامه . وتختلف العائلات اختلافا بينا فى اتباعها للنظم العلمية فى تغذية الطفل . وعلى أية حال ، فإن على الطفل أن ينتظر بعض الوقت حتى يحين ميعاد الرضاعة . ومن المحتمل أن اتخاذ نظام معين فى إرضاع الطفل فى الشهور الأولى يترتب عليه تولد فعل منعكس شرطى . وحوالى نهاية العام الأول يبدأ الطفل فى محاولة التغلب على هذا الفعل المنعكس الشرطى نتيجة لإلحاح الدوافع الغريزية التى تجاهد فى سبيل الإشباع فى الحال دون الخضوع لما تقتضيه هذه الأفعال المنعكسة . ومن ثم فإن الانتظار اللازم للمواعيد المحددة للتغذية سيترتب عليه حدوث أول نزاع بين رغبات الأم ورغبات الطفل . ولكن هذا النزاع ليس عنيفا لأن الأم بدورها تود تغذية الطفل . ولكن لا يلبث الأمر أن يتغير فى وقت الفطام خاصة إذا ما وقع الفطام فى أواخر العام الأول . فيود الطفل الاستمرار فى الرضاعة من حلمة الثدى . فإن الرضاع فى هذه المرحلة يتضمن معنى أكثر من مجرد الحصول على الطعام ، كما أن الأم تود أن تستبدل بالثدى « المصاصة » . وإذا ما حدث الفطام فجاءة

فقد يرفض الطفل الطعام فترة ما ولكن ينتهى الأمر برضوخه . فإن اعتماده على أمه يبلغ حداً كبيراً كما أن الجوع يلح عليه إلحاحاً شديداً الأمر الذى ينتهى به . رغبة منه فى تخفيف التوتر المتزايد الذى يعانيه . إلى أن يتعلم كيف يشبع حاجته عن طريق شىء بديل (١) . وإن عملية الفطام البالغة الأهمية فى تطور ونمو الطفل النفسى : فهى تمثل أول صراع بين رغبات الطفل والعالم الخارجى الذى يتمثل بشكل بارز فى رغبات أمه وأوامرها . فعلى الأمهات أن يمهدن لهذا الفطام بطريقة تدريجية وأن لا يلجأن إلى الفجأة فى تنفيذ الفطام كأن يعمدن إلى تعويد الطفل على « المصاصة » بجانب الثدى قبل حلول الفطام حتى يتعود الطفل عليها . وتبدو فى عملية الفطام ظاهرة نفسية بالغة الدلالة ألا وهى تحويل الطفل لإعجابه من ثدى أمه إلى «المصاصة» . ومعنى ذلك انتقال الدافع الغريزى من موضوعه إلى موضوع بديل له به بعض الصلة . ولكن هذه العملية لا توجب تغيراً فى الدافع الغريزى نفسه . وكل ما يحدث هو تغيير الموضوع . ومع ذلك ، فإنها تفيد أن الطفل أصبح مرغماً على أن يكتفى بلذة أقل مما كان يحصل عليها عندما كان يحصل على غذائه عن طريق الثدى ، كما تفيد أيضاً تخلى الطفل عن تلك الصلة الوثيقة التى كانت تربطه بجسم أمه . هذه الصلة التى يغرم بها الطفل غراما شديداً . ويلعب هذا الإبدال — أى انتقال الطاقة الجنسية فى مثالنا هذا من موضوعها الأصلى إلى موضوع بديل — دوراً كبيراً فى حياة الطفل المقبلة وتربيته : ويتمثل فى إقلاع الطفل عن أى عمل لا يحظى بالقبول الاجتماعى فى سبيل عمل اجتماعى مقبول . ويجب أن نتذكر أن الطفل يتنازل عن كمية معينة من اللذة الغريزية فى الإبدال الذى يقوم به . والإبدال ما هو إلا ميكانيزم من الميكانيزمات التى تتعدل عن طريقها الطاقة الغريزية . ويبدأ ظهوره منذ وقت مبكر فى حياة الطفل نتيجة لمطالب الظروف الخارجية التى تحيط بالطفل . والقوة التى تدفع الطفل إلى تقبل الشىء البديل هى العلاقة الوجدانية التى تربطه بأمه ، هذه العلاقة التى تكون قد وصلت إلى درجة وثيقة .

والموضع الثانى الذى نلاحظ فيه اختلافا بينا بين سلوك الطفل وسلوك الراشد يتضح فى تعويد الطفل وتدريبه على النظافة . ومن الواضح أن الموقف هنا يخالف موقف الطفل أثناء السنة الأولى . فإن ذكاء الطفل يأخذ فى النمو والزيادة كما أن

١ Kate Friedlander: "The Psycho-analytical approach to juvenile Delinquency" p.p. 27-37

علاقته بأمه لم تعد بنفس الدرجة التى كانت عليها من قبل نظرا لشعور الخيبة الذى سببته له من قبل . حقا إنه ما زال يعتمد على أمه ولكنه يشعر فى نفس الوقت شعوراً غامضاً بأن له بعض السلطة والتأثير على من حوله كأن يكون طفلا مشاكسا . فإن دوافعه الغريزية تصل إلى حد كبير من العنف والقوة فى ذلك الوقت . وعلى الطفل أن يطامن من حدتها أو يخفيها إذا ما أراد أن يعيش فى سلام مع المجتمع المحيط به . وإن قوة الرغبات الغريزية للطفل لتبدو واضحة فى تلك المرحلة إذا ما قارنا سلوكه . إذا ما طالبنا منه أن يتخلى عن شىء ما يحقق له لذة غريزية . بسلوكه الذى يبدو منه إذا لم نشجعه على إتيان عمل من الأعمال يود عمله لمجرد حب الاستطلاع . ونذكر على سبيل المثال أن جميع الأطفال مغرمون باللعب بالنار ويودون لو اقتربوا منها ومسوها . وبعض الأطفال — إن لم يكن الغالبية العظمى منهم — يمتنع عن الاقتراب منها أو لمسها إذا ما أخبرناهم بأنها تضرهم أو تؤذيهم وأنها مصدر خطر . وقد يلجأ البعض الآخر إلى العبث بها ولكن الألم الذى يعانونه من جراء ذلك قد يكون كافيا لردعهم عن تكرار هذا العمل . وتظهر الأمهات الاشمئزاز من قذارة أطفالهن وقد يلجأن إلى طرق عنيفة فى سبيل تعويد الطفل النظافة . ومع ذلك ، فإن الطفل قد يستمر مدة ما قذراً إن لم نلجأ إلى طرق صارمة فى سبيل إقلاعه عن هذا المسلك . ولكن بدء الطفل فى تقليد الأطفال الآخرين والراشدين يكون واضحا فى ذلك الوقت فيحاول أن يقلع عن هذا السلوك . والعملية التى يتم بها تحويل اللذة التى يشتقها الطفل من القذارة إلى سلوك البالغين الذى يتسم بالنظافة ما هى إلا عملية طويلة معقدة . والدافع الذى يدفع الطفل إلى أن يقلع عن هذه اللذة إنما هو حبه لأمه وخوفه منها . وسرعان ما يفهم الطفل أن أمه لا تود منه أن يتبول على نفسه . وفى ملاحظتنا للأطفال الذين تعلموا المشى حديثا أو الذين هم فى سبيل أن يتعلموه ، نراهم لا يعيرون هذه المسألة أية عناية . ولكن بمرور الزمن خاصة عندما يلاحظون علامات التقدير والسرور على وجوه الأمهات إذا لم تبتل ملابسهم . يبدأون فى الحرص على إتيان هذا السلوك الذى يرضى الأمهات . ومن الواضح أن الطفل يود بشكل قاطع أن يحتفظ بمحبة أمه . وبخطوات بطيئة واثقة يوحد الطفل بين رغبته ورغبة الأم ويبدأ فى مكافحة دوافعه وحوافزه الباطنية أى يتم تقمص الطفل لشخصية أمه . ويمر بعض الوقت حتى يصبح الطفل نظيفاً

حقاً . وفى أثناء ذلك يشبع الطفل رغبته فى أن يكون قذراً فيعمد إلى اللعب فى براز . ولكن سرعان ما ينكر الطفل صلته بهذا السلوك الذى لا ترتضيه أمه أو يصف نفسه بالشقاوة . وإذا ما تمكن الطفل من ضبط عضلات المعدة فإن اللذة الناتجة عن نجاحه تثبت سلوكه فى هذا الاتجاه الجديد . وليس بالأمر الغريب أن نرى الطفل يبالغ فى إظهار اشمئزازه من قذارة الأطفال الآخرين كما لو كان غير واثق من نجاحه السابق فى ضبط عضلات المعدة ومن جهوده التى بذلها فى تحقيق هذا العمل . هذا إن لم يستجب الطفل بعنف إزاء كل شىء يمكن أن يذكره باللذة السابقة التى أصبحت غير مرغوبة الآن . ولكن علينا أن نتساءل : ما الذى حدث للدافع الغريزى نفسه فى هذه العملية ؟ لقد استبدل بالدافع الغريزى النزعة المضادة . وبعبارة أوضح أصبح سلوك الطفل يتفصح عن عكس النزعة المكبوتة : فبدلا من أن يكون الطفل قذراً تبدو رغبته واضحة فى أن يكون نظيفاً أو بدلا من أن يعمد إلى إيذاء الأطفال الآخرين يتفصح سلوكه عن الشفقة .

ومن الممكن ملاحظة أن الرغبة الاجتماعية تكون دواما فى نفس قوة الدافع الغريزى الأصيل . فتستخدم الطاقة الكامنة وراء الدافع الغريزى لإضعاف هذا الحافز وتقوية النزعة المضادة . ويسمى هذا الميكانيزم بميكانيزم رد الفعل Reaction-Formation .

والنظافة والقدرة على الشعور بالشفقة ما هما إلا مظهران من مظاهر تكوين الخلق . وهذا المثال يبين لنا كيف أن تعديل الدافع الغريزى يفضى إلى تكوين الخلق عند الطفل . وتوجد أيضاً نزعات غريزية تنتمى إلى المرحلة الاستية السادية على الطفل أن يعدل من اتجاهاتها إذا ما أراد أن يعيش فى سلام مع المجتمع . ونذكر على سبيل المثال اعتقاد الطفل بأن براز شىء ثمين ولا يبعث بحال من الأحوال على الاشمئزاز . فالبراز شىء من نتاجه بل إن الطفل ينسب إليه فى ذهنه جميع القوى السحرية . فهذا السلوك . الصادر عن دوافعه الغريزية فى ذلك الوقت . لا بد من أن يختفى . فإن عليه أن يتخلى عن براز لأن هذا هو رغبة أمه . وعليه كذلك أن ينظر إليه على أنه شىء يبعث على الاشمئزاز . فانتقل الاهتمام من البراز نتيجة للتدرب على النظافة إلى الرغبة فى الاستحواذ والامتلاك بصورها المتعددة . كاللعب أولا . وإذا ما امتد به العمر إلى النقود .

وإن قوة ارتباط الطفل ببرازه لتبدو واضحة فى العناد الذى يقابل به الطفل رغبة أمه فى أن يتبرز فى أوقات معينة وأماكن مخصصة . ونكرر القول بأن القوة الأصيلة للدوافع الغريزية إنما تقدر بقوة الطاقة المنقولة . ونجد عادة سمات الخلق الآتية موجودة فى شخصية معينة : كالعناية بالنظافة والحبل المفرط للمال والعناد .

وإذا كنا الآن قد فرغنا من ميكانيزم الإبدال ومؤداه انتقال الطاقة الجنسية من موضوعها الأصلى إلى موضوع آخر له به بعض الصلة ، ومن ميكانيزم رد الفعل الذى يفيد أن سلوك الطفل يتفصح عن عكس النزعة المكبوتة ، فعلينا أن نذكر أن لهذين الميكانيزمين هدفا اجتماعيا . فقد يتخذ ميكانيزم رد الفعل صورة النظافة أو الشفقة أو الخجل أو الاشمئزاز ، وكلنا يعلم جيداً أن هذه صفات لا بد من توفرها فى الإنسان . ومع ذلك فإن ميكانيزم رد الفعل ليس بالميكانيزم الاقتصادى إذا ما وضعنا الطاقة النفسية موضع الاعتبار . وربما كان هناك طرق أكثر كفاية وملاءمة لمعالجة هذه الدوافع الغريزية . فقد يحس الطفل رغبة فى إيذاء طفل آخر ولكنه يتعلم فى الوقت المناسب أن نتيجة هذا العمل لن تكون سارة له . وقد يلجأ الطفل إلى تعذيب الحيوان وإيذائه ولكنه يمتنع عن إتيان ذلك إما نتيجة للتواهى التى تصدر إليه من المحيطين به أو لمعرفته أن الحيوان يعانى الألم كما يعانيه هو إذا ما أوذى . ومن هنا يبدأ سلوك الطفل فى أن يتخذ شكلا اجتماعيا مقبولا : فبدلا من أن يتسلى ببتر أرجل الحشرات كالعناكب يبدأ الطفل بتهشيم وتحطيم لعبته وهذا العمل قد يؤدى بدوره إلى أن يبدأ الطفل فى فحص الأشياء التى تقع فى دائرته ويتحسس الطريقة التى تسير وفقا لها لعبته الآلية كسيارته الصغيرة ... وقد يحاول تركيب هذه اللعب من جديد . ومن هنا ترى أن الغريزة قد انحرفت عن هدفها الأصلى — أى إيذاء الغير وتعذيبه — إلى هدف اجتماعى جديد أى الحل والتركيب . ويبدو فى هذا الميكانيزم الذى نسميه إعلاء أن الجزء الأكبر من الدافع الأصلى قد استخدم فى نشاط اجتماعى . ويعتبر الإعلاء بحق من أكثر الطرق نفعا واقتصاداً لتعديل الغريزة ، فيبدو كامنا وراء كثير من ضروب النشاط الإنسانى .

وهنا ملاحظة لا بد من ذكرها ألا وهى أننا قد افترضنا فى كلامنا عن ميكانيزمات الإبدال ورد الفعل والإعلاء توفر الوقت اللازم للطفل لكى يكيف

سلوكه الوسط الاجتماعى الذى يحيط به . وأن الخوف مما عسى أن يحدث للطفل إذا ما انغمس فى نشاط يشتق منه لذة ليس طاغيا . ولكن قد يحدث الشعور المفاجئ بالخيبة أو المخاوف المرتبطة بإرضاء الميول الغريزية نتائج مخالفة تماماً . ولنذكر على سبيل المثال الدافع العدوانى الذى يتمثل فى رغبة الطفل فى إيذاء أخيه الصغير . فقد يصدم الطفل نتيجة لضربه من أحد أفراد عائلته البالغين إذا ما حاول الأعتداء من جديد على أخيه الصغير . ومن ثم تتحول الغريزة إلى ضدها . فإن الرضاء يشتق فى هذه الحالة من تقبل الطفل للأذى واتخاذه موقفاً سلبياً بدلا من أن يكون هو مصدر الأذى الأمر الذى يترتب عليه ضآلة الفائدة التى تعود على الطفل فى بناء خلقه . ولكن قد يجد الدافع الغريزى مخرجا آخر . فإن الطفل العدوانى فى هذه الخبرة المعينة قد يفقد فجأة جميع نزعاته العدوانية ويصبح فى نفس الوقت خاملا . فقد اختفت النزعات العدوانية من سلوكه الصريح . ولكن هل اختفت هذه النزعات إطلاقاً ؟ فقد يلجأ نفس هذا الطفل إذا ما تقدم به العمر إلى إلحاق أذى شديد بأخيه الصغير فجأة . وعلى الرغم من أن هذه النزعات العدوانية قد استبعدت من الشخصية الشعورية للطفل إلا أنها لم تختف لأن الطاقة النفسية لا تتلاشى بل كبتت فى اللاشعور حيث تبقى فى صورتها الأصلية . ويتطلب كبت هذه الدوافع المضادة للمجتمع قسطاً كبيراً من الطاقة النفسية . وكل من الطاقة النفسية الكامنة وراء الدافع الغريزى الأصلى والطاقة المستعملة فى كبت هذا الدافع قد ضاع على الطفل استغلالها فى نشاط مفيد . وأكثر من ذلك : فإن الأمر ليس قاصراً على اختفاء هذه النزعات العدوانية فحسب بل إن الأمر يتعداها إلى أى نشاط يرتبط بهذه النزعة القديمة يكون مصيره كذلك . ومن ثم يضيع على الطفل قدر كبير من الدوافع النشيطة التى تدفعه للعمل . ولكن هذه الدوافع الغريزية المكبوتة تعمل باستمرار على تهديد الشخصية الشاعرة . وقد تأتى اللحظة التى تستطيع فيها أن تفصح عنها بشكل صريح أو مقنع .

ولقد عرفنا أن تعديل الدوافع الغريزية فى هذه المرحلة إنما يحدث عن طريق علاقة الطفل بأمه وأن الانفصال المفاجئ عن الأم قد يفضى إلى حدوث تكوص أى ارتداد الطاقة الغريزية إلى مستوى من النمو قد جاوزه الطفل . وهذا ما حدث إبان الحرب العالمية الثانية عند ترحيل الأطفال واضطرارهم لترك

أمهاتهم بسبب الغارات . فقد لوحظ أن هؤلاء الأطفال قد قل ميلهم إلى النظافة عما كان عليه من قبل أى أن الأطفال قد ارتدوا إلى نمط توافقى أقل مرتبة وتمشيا مع نموهم النفسى . فإذا لم يتمكن الطفل من إشباع حاجاته بالنسبة لمستوى معين يرتد إلى مستوى سابق يسهل عليه فيه أن يشبع حاجته الغريزية لأنه قد سبق أن أشبعها فيه من قبل . ويمكن أن يحدث التكوص فى أية مرحلة من مراحل النمو نتيجة للشعور بالخيبة أو الإشباع المفرط . والتكوص نوع من ألوان التوافق عن طريق الانزواء لأن الطفل لا يحاول فيه أن يحل مشاكله بطريق مباشر بل يرتد إلى نمط توافقى أقل مرتبة وتمشيا مع نموه النفسى . والمستوى الذى يصل إليه التكوص ليس خاضعاً بأى حال من الأحوال للصدفة . فإن الدوافع الغريزية أثناء نضجها تصادف استجابات متنوعة . وإذا ما حدث فى أى مرحلة من مراحل النمو — ولتكن المرحلة الاستية الشرجية — أن وجد الطفل إشباعاً مبالغاً فيه أو إذا ما أحبطت رغباته دواما فى هذه المرحلة فإن جزءا من الطاقة الغريزية يعلق ويثبت عند هذه المرحلة . وإذا ما تقدم بالطفل العمر وأصبح إرضاء حاجته بالنسبة لمستوى أعلى من مستويات النمو مستحيلا ، ترتد الطاقة الغريزية إلى المرحلة القديمة التى حدث عندها التثبيت Fixation .

وليست كل الدوافع الغريزية التى تتفصح أثناء مراحل النمو معدلة أو محولة . ويجد كل إنسان نفسه مضطراً إلى السماح لقدر معين من الدوافع الغريزية بالإشباع الغريزى المباشر . ومع ذلك فإن هناك اختلافات بينة واسعة بين الأفراد فى درجة العلاقة بين الإشباع المباشر وغير المباشر أو المعدل . فإن الدوافع الغريزية للمرحلة القضيبية phalic stage التى تظهر فى البلوغ كالدافع التناسلى يمكن بل ينبغى أن تجد إشباعا مباشراً فى الحياة الجنسية للراشد ولو أن فى الإمكان إعلاء هذه الدوافع التناسلية إلى درجة معينة بالنسبة لفترة معينة . وتبقى بقايا الدوافع الغريزية للمرحلة الفمية بدرجة تكاد تكون غير معدلة مثال ذلك التقبيل بالنسبة للنشاط الجنسى ، والنزعات التى ترمى إلى كشف الجسم وعرضه وبوجه خاص عند المرأة Exhibitionistic Tendencies والدوافع العدوانية عند الرجل . وتختفى الدوافع الجنسية للمرحلة ما قبل التناسلية Pregenital Phase لعدم ملاءمتها للسلوك الاجتماعى وقد عرضنا من قبل للميكانيزمات التى تعدل بها هذه الدوافع الغريزية . ولا تظهر كل هذه الميكانيزمات فى

بدء حياة الطفل . فالكبت يفترض أن شخصية الطفل أصبحت قوية لدرجة تسمح لها بأن تتحكم فى الغريزة . الأمر الذى لن يتحقق إلا عند نمو الأنا أو الذات بدرجة تسمح لها بذلك أى فيما بعد الثالثة . ويتطلب الإعلاء القدرة وبدء الحس الاجتماعى عند الطفل ولا يظهر عمله بدرجة واضحة قبل الخامسة وعلى العكس من ذلك نجد الإبدال يظهر فى البداية . والأمر كذلك بالنسبة للتكوص . ويظهر رد الفعل أول ما يظهر أثناء المرحلة الاستية السادية .

ولا تجد دوافعنا الغريزية فى حضارتنا الحالية مخرجا يسمح لها بالإشباع . ومع أن الكبت الجنسى قد خفت حدته فى عشرات السنين الأخيرة ، إلا أن الدافع الجنسى لا يمكن إشباعه وقت ظهوره مباشرة ولا ينبغى كذلك أن يشبع . ومع أن الدافع الجنسى قد يجد فرصة لإشباعه فيما بعد ، فإن الدافع العدوانى يتطلب القدر الكثير من التعديل إذا ما أردنا حياة اجتماعية مقبولة . وإن حضارتنا الحالية بإصرارها وتمسكها بعدم إعطاء الفرص المواتية لإشباع جميع الدوافع الغريزية لتدفع ثمنا غاليا ألا وهو ذلك الاضطراب العصابى الذى يشيع بين نسبة كبيرة من البشر . ومع ذلك ، فإن الأمر لا يدعو إلى التشاؤم . فقد اختلفت نظرتنا إلى طبيعة الحياة النفسية اختلافا محسوساً عما كانت عليه من قبل . ولكن الموقف يبدو أقل خطورة إذا ما كان فى إمكان المرء أو أقاربه أن يختاروا له الميكانيزم أو الطريقة التى يتمكنون بها من تعديل وتوجيه دوافعه الغريزية . ومما لا شك فيه أن الوسط الاجتماعى الملائم قد يساعد فى تحقيق ذلك . ومع ذلك ، فإن كل فرد منا يعانى الكبت ورد الفعل . ولقد سبق لنا القول بأن هذه الميكانيزمات تسلب الإنسان قدراً من الطاقة النفسية كان من الممكن بذله فى ضروب أخرى من النشاط . ونلاحظ من جديد أن عوامل الكم هى التى تميز شخصية فرد عن غيره أكثر من عوامل الكيف ، وليس الكبت دائماً بالعامل المعطل . وكثير من الأشكال التى يتخذها ميكانيزم رد الفعل كالنظافة والشفقة من السمات المقبولة لتكوين الخلق . وقد نجد بعض الإعلاء حتى فى الشخصيات العصابية . ويمكن أن نرجع إلى درجة معينة أى الميكانيزمات التى يختارها الفرد فى تعديل غرائزه إلى عوامل فطرية . والشخص الذى يتمتع بقسط كبير من الذكاء والقدرات يكون أكثر قدرة على إعلاء دوافعه الغريزية من الشخص المتأخر عقليا . وعلى الرغم من وجود هذه القدرات الفطرية ، وعلى

الرغم أيضاً من أننا لا نستطيع اختيار أفضل هذه الميكانيزمات اختياراً مقصوداً . فإن الوسط الاجتماعى يلعب دوراً هاماً فى مصير هذه الغرائز .

وإن تعديل الحوافز الغريزية الأصلية لعامل مهم فى اكتساب السلوك للصيغة الاجتماعية ولا يعادله فى الأهمية إلا ضرورة جعل الطفل قادراً على الانتظار فى سبيل إرضاء رغباته الاجتماعية . وتتضافر كثير من العوامل فى السماح لهذا النمو المزدوج بأن يتخذ طريقه بشكل كاف . ويرى « كيت فريدلندر » أن هناك استعداداً مجبولا فى الدوافع الغريزية يجعلها قابلة للتطور إلى أشكال راقية من النمو . وهذا الميل البيولوجى للغرائز يجعل التطور أكثر سهولة أثناء السنين الأولى للحياة لتكوين الأبدال Substitutes أو للعمل على التعجيل بحدوث التعديل الذى يلحق الدوافع الغريزية فى الوقت الذى تكون فيه المرحلة التالية للنمو على وشك الوقوع . فالطفل العدوانى الذى يبلغ من العمر عامين لا يكف عن ضرب الطفل الآخر إذا ما علم أن هذا الضرب يؤذيه لأن هذا هو الغرض الذى يستهدفه . ولكن بعد حوالى ستة شهور أى فى الوقت الذى يصبح فيه قادراً على الشعور بالشفقة فإن هذا التفسير يؤدى إلى تعديل لغريزة العدوان .

وتلعب الاستعدادات الفطرية للطفل كقوة دوافعه وحوافزه وذكائه دورها فى اختياره للميكانيزمات ، واو أن هذه العملية عملية لاشعورية . وهذان العاملان الجبليان لا يخضعان لتأثير العوامل الخارجية . ولكنهما يساهمان فى تحقيق النتيجة الملائمة . وإن العامل الفعال فى حدوث تعديل الدوافع الغريزية ليكمن فى علاقة الطفل الوجدانية بأمه . ولقد رأينا فيما سبق كيف تكون الرغبة فى دوام حب الأم وعطفها والخوف من ضياع هذا الحب هى الدافع فى تعديل الطفل لسلوكه وتعويده النظام فى بدء حياته أى فى الوقت الذى لا يستطيع أن يفهم فيه الطفل أى معنى للسلوك الاجتماعى وتكون الغلبة فيه لإلحاح الدوافع الغريزية . ومن هنا نفهم عظم المسئولية الملقاة على عاتق الأم . وأهمية الطريقة التى ستسلكها فى تنشئة طفلها وتعديل غرائزه . ولقد رأينا من قبل أن بعض الميكانيزمات ليست كلها ذات فائدة بل إن فى بعضها تعطيلا وضياعاً لجزء من الطاقة . ففى الكبت ضياع للطاقة النفسية إذا ما أدخلنا فى حسابنا المراحل التالية لنمو الشخصية . ويحدث الكبت إذا ما تعرض الطفل لصدمات فجائية سواء أكان مصدرها

خارجيا أم نتيجة لخوف فطرى . ومن الممكن أن نتجنب المصادر الخارجية للخوف . وإذا ما أدخلنا طبيعة وتعبير الحياة الغريزية فى حسابنا فإننا يمكن أن نستنبط مبدأ عاما : إذا ما أردنا أن يسير تعديل الدوافع الغريزية على نحو كاف ، ينبغى علينا أن نعطيها الوقت اللازم . فينبغى أن نعطى الفرصة لهذه الدوافع لتفصح عن نفسها وأن نتجنب التغيرات الفاجئة . حقًا ، من الممكن أن ننجح فى تعويد الطفل على النظافة بسرعة إذا ما لجأنا إلى الضغط وضروب التهديد المتنوعة ؛ ولكن لهذه الوسائل أثراً هداماً فى تكوين خلق الطفل . ومن ناحية أخرى ، علينا أن نحترس من المبالغة فى إعطاء الفرصة للطفل لإشباع دوافعه لأن هذه المرحلة ستتلوها مرحلة أخرى وإلافإننا نكون قد ساعدنا الطفل على التثبيت بالنسبة لهذه المرحلة التى أشبع فيها حاجاته إشباعا مفرطا . فينبغى أن يحرم الطفل من مص أصابعه أثناء النهار فى سن الثانية ولكن علينا أن نزوده بلعب مناسبة تشغله بدلا من وضع مادة مرة المذاق على أصابعه .

ولكى نطبق الطرق التربوية بطريقة تساعد الطفل على استكمال النمو السوى ينبغى علينا أن نعرف المراحل المختلفة للنمو الغريزى : أى معرفة ما هو طبيعى بالنسبة لعمر معين ؛ كما أنه ينبغى تهيئة الوسط الاجتماعى للطفل . فيجب أن يعد المنزل بحيث تخصص فيه غرفة للعب الأطفال لأن الطفل يجد فى اللعب تنفيسا عن بعض ما يعانيه من ضروب الصراع .

هذه باختصار هى أهم العوامل الرئيسية التى يترتب عليها تعديل الحوافز والدوافع الجنسية المضادة للمجتمع . وبمعرفتنا لهذه العوامل يكون فهمنا أكثر لأهمية النمو الانفعالى الذى يطرأ على الطفل فيما بين الثالثة والخامسة ، أى مرحلة النزعات الأوديبية .

ولكن علينا أن نوجه النظر إلى علاقة الطفل بأمه لما لها من عظيم الأهمية فى تكوين خلق الطفل . فيجب أن تسود الروح الواقعية بين الطفل والأم . فإذا ما بالغت الأم فى إظهار حنانها بصورة مفرطة أدى هذا إلى تعطيل النمو الوجدانى للطفل وتثبيته عند مرحلة معينة . وقد يؤدى هذا الاتجاه الذى يتصف بالمبالغة فى الحنو إلى فشل الطفل فى حياته الزوجية ؛ مثال ذلك تلك الحالة التى درسها الكاتب . س . ع مات أبوه وهو فى العام الأول من عمره . فعملت أمه على تربيته تربية ناعمة لأنه الذكر الوحيد ، فأخذت تجيب جميع مطالبه

خوفاً من ثورته . واتسم سلوكه بطابع الأنانية وعدم الواقعية فى معاملته للغير ؛ وعند زواجه الذى انتهى بالطلاق نظراً لأنه يود من زوجته أن تعامله كما كانت تعامله أمه أى تسرع إلى إجابة جميع مطالبه . وأكثر من ذلك أن أمه كانت تتدخل دائماً فى العلاقة بينه وبين زوجته . ومن الملاحظ أن أمه كانت تسرع إلى إجابة جميع مطالبه وتلقى اللوم جزافا على الزوجة . ولعل العوامل التى ساعدت على مضاعفة المشكلة فى هذه الحالة كونه الذكر الوحيد فى العائلة وموت أبيه وهو صغير .

ويظهر أثر الحنان المفرط فى حالة م . ش . وهو شاب يبلغ التاسعة عشرة من عمره . وكان يشكو من حصر نفسى . وهذه الحالة تتضمن — كما أعتقد — عاملا جديداً ساعد على مضاعفة المشكلة ألا وهو وجود « زوج الأم » . ولنتناول طفولته بالبحث . كان م . ش الطفل الذكر الوحيد لأمه ولهذا كان محط عناية أمه وتدليلها المفرط فكانت تسرع فى الحال إلى اجابة جميع مطالبه . مات أبوه وهو فى السادسة من عمره . وتزوجت أمه بعد قليل . وصحب هذه الحالة تغير فى مركز الطفل . فبعد أن كان ينام فى نفس الحجرة التى تنام بها أمه انتقل إلى غرفة أخرى . وكان من الممكن أن يمر هذا التغير بسلام لولا العناية المفرطة التى كان يتمتع بها من قبل . فشعر الطفل أن أمه أصبحت لا توجه إليه نفس العناية السابقة بسبب وجود « زوج الأم » وساعد على مضاعفة المشكلة ظهور أخت له . فاستقبلها استقبالا سيئاً . وأصبح يكن لزوج أمه مشاعر عميقة من الكراهية . ولكن نظرا لضعفه بإزائه وجه هذه المشاعر العدوانية إلى أخته . فكان يلجأ إلى قفل الباب عليهما وحدهما ويضربها ضربا مبرحا بحجة تعويدها الأدب على الرغم من بلوغه فى هذا الوقت السابعة عشرة من عمره . ولا يخفى علينا « الإبدال » الذى كان يعمل فى هذا الموقف . فقد نقل انفعالات الكراهية من زوج أمه إلى أخته وأخذ فى « تبرير » ذلك السلوك على نحو عقلى . وفى أحيان أخرى كانت تتفصح نزعاته العدوانية نحو « زوج أمه » فى توجيه بعض الشتائم إليه . وكانت أحلام الشاب تدور حول التخلص من « زوج الأم » وابنته . وهاك أحد الأحلام التى حللها الكاتب : فلقد حلم الشاب أنه اشترى سيارة من أمريكا وشحن أجزاءها فى طائرة ولكن الطائرة وقعت فى البحر وتحطمت . وهاك الأفكار التى كشف عنها التداعى بالنسبة للسيارة : ذكر أنه يتوق

إلى شراء سيارة ثم ذكر بانفعال وصعوبة أن « أخا لزوج أمه » قد مات فى طريقه إلى بلدته أثناء نقله وهو فى حال المرض إلى المستشفى . وهنا وضح معنى الحلم . فما لا شك فيه أن « أخا زوج الأم » بديل عن زوج الأم الذى يود أن يتخلص منه . فكما مات أخو زوج أمه فى سيارة فليمت زوج أمه كذلك . وواضح أيضاً أن « الطائرة » إنما ترمز إلى الأم . فكأن المعنى الذى يهدف إليه الحلم هو التخلص من زوج الأم والأم معاً كما يشير أيضا إلى التخلص من أخته لأمه لأن « أخته » « جزء » أو بعض من أمه . وقد تكون الرغبة فى التخلص من الأم مدعاة للغرابة . ولكن الغرابة تزول إذا ما عرفنا أن الحب الشديد قد يكون ستاراً لكراهية لا شعورية شديدة .

لقد عرضنا الآن لنضج الغريزة الجنسية وتعديلها وعلاقة الطفل بأمه . وبينا ما لهذه العوامل من أثر فى تكوين الخلق . ولم يبق إلا أن نعرض لنشوء « الذات العليا » وينبغى علينا أن نشير إشارة موجزة إلى الشعور واللاشعور . وإذا فرغنا من ذلك تناولنا رأى سيجموند فرويد وأرنست جونز وميلانى كاين فى أصل ونشوء الذات العليا . ونأمل بعرضنا لهذه الخطوات أن نرسم صورة واضحة القسمات لتكوين الخلق عند أصحاب التحليل النفسى .

(للبحث بقية)

كمال الدين عبدالحميد نايل